# الساخر الساحر

فيصل أكرم

في الأزمات دائماً تتولّد المعجزات، وينفجر الإبداع عادة في أجواء تحيطها الاضطرابات، وقد يظنّ المعتادون على سوء الظن بأن النجم الذي يصعد في حالات كهذه مشحونة بالأحداث والتناقضات إنما هو مستغلٌ لمأساة حدثت ولولاها لم يكن؛ بينما الواقع الذي أراه أنه ما كان للمأساة معنى لو لم تنجم عنها نجوم!

حديثي هنا ليس عن صانع حدث من الأحداث التي تتكالب علينا من كل مكان، ولكنه عن صانع مادة تلفزيونية تسخر من الأحداث بإتقان أحسبه سحراً.. باسم يوسف.. صاحب برنامج (البرنامج) الذي أصبح في جمهورية مصر الشقيقة أشهر برنامج تلفزيوني على الإطلاق في وقتٍ قياسيّ، وما كان له أن يكون الأكثر جدلاً بين المثقفين لو كان إسفافاً أو تهريجاً كما تراه فئة من الناس، كما أنه ما كان له أن يصل إلى كل طبقات المجتمع المصريّ ويكون الأكثر مشاهدة بين عامة الناس لو كان بالعمق والمغازي التي تراها فيه فئة أخرى من الذين كتبوا عنه. إنه - كما أرى - وبكل بساطة: برنامجٌ ساخرٌ ساحر!

لم يترك باسم يوسف حدثاً من الأحداث أو شخصية من الشخصيات المؤثرة في مصر إلا وجعل منها - بصدق موثق لا تزوير فيه - مادة رائعة وممتعة وغاية في الضحك البريء، وكنتُ أتابعه إلكترونياً على شاشة (يوتيوب) قبل أن ينتقل إلى شاشات التلفزيونات المصرية التي - بحسب بدرية البشر - لم تستطع معه صبراً (!) فكل قناة بعد عرض كل حلقة تضطر إلى إصدار بيانات لإرضاء أحبابها ممن قد أصابتهم بعض طلقات البرنامج القاتلة ضحكاً لا يضاهيه ضحك. فهل حتى عن الضحك يعتذر الإنسان؟!

وقد تم إيقاف (البرنامج) أكثر من مرة، كان آخرها قبل ثلاثة أشهر، حتى عاد في الأسبوع الماضي بحلقة أولى في موسم جديد قال تمهيداً له في مقالة نشرتها صحيفة (الشروق) المصرية قبل عرض الحلقة بأيام: (سنبذل قصارى جهدنا لوضع ابتسامة على شفاه من أصابهم الملل من البرامج التقليدية وسنضحك معهم بدلاً من أن نبكي) واختتمها باعتذار قال فيه للمشاهد: (أعتذر مقدما لأنك لن تتفق مع كل شيء أقوله، وربما ستكرهنا أو ننزل من نظرك). شدّني هذا الرجل الطبيب الشاب المثقف الذي دخل إلى عالم الشهرة من بوابة الشاشات المرئية بوسيلة يتقنها تماماً (السخرية) وكأنما اجتمع فيه الساخرون جميعاً، من أدباء وفلاسفة وفنانين بمختلف الفنون، فهو يقدم صورة وصوتاً وأفكاراً وملاحظات وموسيقى وأغنية ورقصات مع فريق عمل محترف جداً في انتزاع الضحكات عن جدارة رغم حداثة عهده بالظهور الإعلامي..

وباسم يوسف لا أعرفه شخصياً وأظنه لا يعرفني، ولكنني مع إعجابي بما يقدمه في برنامجه ازددتُ إعجاباً به حين شاهدتُ حلقة من (الحكم بعد المزاولة) الذي استضافه على أنه برنامج لقناة فرنسية ثم في نهاية الحلقة أخبروه بأن القناة إسرائيلية (!) معظم الفنانين والمشاهير الذين استضافهم ذلك البرنامج الفكاهي المصري بالكامل والذي هو عبارة عن مقلب من مقالب الكاميرا الخفية وصادوه وحيلهم بينهم وغيرها التي تبث في المواسم الرمضانية، كانوا يثورون ويتشنجون لمجرد ذكر كلمة (إسرائيل) أمام الضيف، إلا باسم يوسف الذي كان رزيناً ومتوازنا ومسؤولاً عن كلام يجب أن يقال بخاصة عندما أدان فريق العمل ووضعه في موقف محرج جداً حين قال لهم أنتم بهذا الأسلوب في الخداع تثبتون لشعبكم أيضاً أنكم غير صادقين وتنتهجون كل الطرق البعيدة عن الأمانة.. ومع ذلك تثور على باسم يوسف جهات كثيرة وتحوّر وتبدّل في كلامه وتتفلسف وتتهم وتزعم وتقسم بأنه عميل (!) وهل لساخر ساحر أن يكون عميلاً؟ تؤكد الدراسات أن من يملك القدرة على إضحاك الناس هو أكثر الناس صدقاً، تماماً كمن يملك القدرة على إبكائهم. فمثل هذه القدرات الخارقة لا يمكن أن يأتي بها عميلٌ أو جاسوسٌ أو مراوغٌ أو منافقٌ أو أفاق؛ وإن حاول فستبوء كل محاولاته بالفشل قبل أن تبدأ!

أحيّي باسم يوسف وفريق عمل (البرنامج) وأشدّ على يده بالاستمرارية حتى لو عاد إلى (يوتيوب) بقناة خاصة لن ينتقص من عدد مشاهديها إن لم تكن منسوخة من قناة تلفزيونية، فالإنترنت وسيلة متاحة للجميع في زماننا الذي يحتاج بشدة إلى من يجعل الناس يضحكون ضحكات جماعية على تصرفات فردية من أشخاص صنعوا أحداثاً لم يكن فيها ما يضحك أو يبكي ولكنها كانت كوارث لا نقول معها إلا (حسبنا الله).

كما أنني أدعو هذا المبدع - باسم يوسف - أن يتوسع في طرحه الساخر ويتمادى في أسلوبه الساحر ليشمل صانعي الأحداث في العالم كله، وليس في مصر وحدها، فالإنسان إنسان في كل مكان، والعالم كله يشبه بعضه بعضاً، وما نطلق عليهم مسمى (الرموز) في عصرنا هذا هم أكثر من يستحقون منا أن نضحك على تصرفاتهم التي لم تجلب لنا إلا الكوارث. فهل كثير على الناس العاديين ساعة من الضحك المحايد؟

أقول (المحايد) وأعرف أن لا حياد الآن، فالكلُّ منحاز إلى ما يرى فيه مصلحته، وأنا أنحاز لباسم يوسف لأن من مصلحتي أن أضحك قليلاً (!) أما باسم يوسف فأظنه الشخص الوحيد المحايد جداً في زماننا هذا، وربما لن يظهر حياده للناس إلا بعد زمن طويل، لو استطاع أن يقاوم كل الضغوط ويستمر..

ffnff69@hotmail.com
◆ الرياض

# سطوة المصطلح (٥)

عادل العلي

يمتلك المصطلح القدرة على الإغواء، فعندما يوصف شخص أنه نزيه، يفهم من ذلك أن كل ما يبدر منه هو بعيد عن السرقة او الفساد أو الخيانة أو الغدر.

صفة النزاهة من الصفات الحميدة و المطلوبة، سواء على المستوى الواسع (الاجتماعي) أو (الوطني)، أم على مستوى ضيق كالعائلي مثلا، و لكن مفهوم نزيه يجب أن يخضع لتعريف جماعي كي يصبح مصطلحا، كما أن هذا المفهوم يعطي انطباعا و كأن النزيه مطلي بطلاء خاص من رأسه الى اخمص قدمية اسمه النزاهة، و هذا الطلاء ذو لون زاه محبب لدى الجميع يخول الشخص أن يكون قائدا لقومه أو (أمينا) على مقدراتهم. و لكن ماذا لو أن صاحبا النزيه سرق خلسة دون علم أحد ؟ هل سيسقط عنه ثوب النزاهة ؟

تجري في عالمنا اليوم حرب ضروس للتلاعب بالتسميات و المفاهيم لطمس الحقيقة و اخفاء الرذيلة، و الذي يقود ذلك هو الإعلام الأصفر (النزيه )،الذي يوصف بحق أنه السلطة الرابعة، باعتباره يأتي تسلسلا بعد السلطة التنفيذية و التشريعية و القضائية، اذا لم يكن أولها، لأن الترويج الإعلامي غير النزيه أشد فتكا من السموم و الحروب.

كي تكون النزاهة مصطلحا، أي متفقا عليها، يجب أن تخضع لتعريف جماعي و آلية تطبيق جماعية. كيف ذلك ؟ بالإمكان أن يشغل المكان المطلوب له النزاهة ليس شخصا واحدا، بل مجموعة أشخاص يراقبون بعضهم بعضا. كما بالإمكان أن تكون مجموعة أخرى تراقب عمل المجموعة الأولى و لها حق الاطلاع على مسار العمل بتقارير رسمية مكتوبة كي يتسنى لها و للرأي العام كله أن يراقب عمل تلك الهيئات، و هذا النوع من التفاعل الاجتماعي يسمى (الشفافية).

اذا محاربة الفساد يتطلب عمل جماعي و ليس قرار فرديا مجردا، و هو أول شروط مأسسة الدولة وصولا فيما بعد الى ما يسمى (الديمقراطية ) . و العمل الجماعي كي يكون ممأسسا لا بد أن يكون مكتوبا و مقرا بشكل جماعي أي (دستوريا)، فالدستور ينظم العمل الجماعي و يمأسسه، كما أن العمل الجماعي نفسه يثري الدستور، حيث التعديلات و التطوير و الإضافات و الحذف و المقارنات و المزاوجة بين دساتير مختلفة تاريخيا أو جغرافيا أو كليهما، كل ذلك هو عمل جماعي يغني الدستور الذي يؤسس للرقي الاجتماعي.

لا زال من يقول أن الدستور مخالف للدين! لأن الدين يحتوي الشرائع، و هي الكفيلة عوضا عن الدستور بتنظيم الحياة الاجتماعية.

القول أن الدستور وضعي و الشرائع إلهية و بالتالي فهو مخالف للدين هو الاغواء بعينه, فليس كل ما هو وضعي يخالف الشريعة، أي عندما نقر جماعيا بأن يوم العمل من ثمان ساعات و الاجازة السنوية ثلاثين يوم للموظفين و العمال و مسئولي الأمن و الدولة, هل في ذلك ما يخالف الشريعة ؟ و هل يمكن التخيل أن نصا كهذا يمكن أن يكون نصا دينيا ؟ الدين يسمو عن نصوص تفصيلية من هذا النوع، فهو توجيه للبناء و الازدهار و ليس للمحدودية و الانغلاق. ثم أن الهدف من تفسير النص الديني هو تسيير الحياة و العلاقات الجمعية، فكيف يمكن للتفسير أن يعلو على النص و يكفر كل ما عداه ؟

في جميع الأديان لا يوجد نص اصطلاحي، أي متفق من الجميع على تفسيره، فالنصوص الدينية ترسم الخطوط العامة للسلوك و العمل و العبادة و الانتاج و توزيع الثروة، أي أولويات انشاء دولة (حضارة) و القضاء على التمزق القبلي العشائري، الذي يعيق بناء مجتمع (مدني) ينمو و يزدهر بعيدا عن الحروب البسوسية و المذابح و الجمود عند الاقتصاد الرعوي المتخلف .

الحق المطلق لتفسير النص هو حق إلهي و ليس بشريا، و بالتالي ممنوع لأي شخص مهما كانت صفته أو (نزاهته) الاستحواذ على هذا الحق، و لذلك أجيز (الاجتهاد) و لكن بشروط حيث لا يحق للمجتهد أن يزعم بأن رأيه هو الصحيح دون سواه، أي أن حق الاجتهاد مرهون بالعمل و النشاط و التفكير الجمعي و ليس حقا فرديا. و يصبح الاجتهاد من هذا المنطلق ضرورة و ليس حقا و حسب . يبذل البعض جهودا جبارة لتفسير النصوص الدينية بمنهجية و رؤيا مبنية على دراسة و تمعن في النص، و هذا حق مشروع و مطلوب لكل من تخصص في هذا المجال و اكتسب القدرة الاكاديمية لمثل هذا العمل, فلا يجوز الجاهل غير متعلم حتى لو كان يحفظ ما تيسر من القرآن أن يقرر فقهيا ما هو الحلال و الحرام ولا يحق له الاجتهاد، فالاجتهاد هو القدرة على البحث العلمي لإيجاد السببية و الظروف الموازية المتعلقة بتاريخية و متطلبات الحدث الاجتماعي و استنباط العبرة منه. لقد أدت مثل هذه الجهود تاريخيا لظهور مدارس فكرية متعددة (مذاهب)، تفاعلت فيما بينها في سباق فكري متنافسة لإيضاح الحقيقة إبان ازدهار الحضارة الاسلامية، و لكنها تمزقت و تفككت و عادت بعضها بعضا خلال انهيار ذلك الصرح العظيم، و بروز النزاعات السياسية على الملك و التسلط. كما أنها اصبحت معادية لبعضها إبان الحكم العثماني و ما تبعه من هيمنة استعمارية اعتمدت سياسة فرق تسد.

ورشة العمل الفكرية الاسلامية هذه كانت مثمرة و متنامية وفرت القاعدة الأساسية للنهوض الأوروبي والبشري فيما بعد.

◆ الدمام